محمد فى التاريخ

اتصال التاريخ بمحمد:

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدا فى عبقريته، أو محمدا فى نفسه، أو محمدا فى مناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين رسالته الدينية، ومن لا يدين له برسالة.

ونريد بهذا الفصل - وهو خاتمة الكتاب - أن نذكر كلمة موجزة عن محمد فى التاريخ، أو محمد فى العالم وأحداثه الخالدة. وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز، لأن العالم كله صفات تنبئنا بمكان محمد فيه.

محمد فى نفسه عظيم بالغ فى العظمة، وفاقا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بنى الإنسان فى عصور الحضارة.

فما مكان هذه العظمة فى التاريخ؟.. ما مكانها فى العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور؟

كأنها فى التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله، وأن حادثا واحدا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع فى الدنيا كما وقع ولولا ظهور محمد وظهور عمله.

فلا فتوح الشرق والغرب، ولا حركات أوروبا فى العصور الوسطى، ولا الحروب الصليبية، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا كشف القارة الأمريكية، ولا مساجلة الصراع بين الأوروبيين والآسيويين والإفريقيين ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات، ولا الحرب العظمى التى شهدناها قبل بضع وعشرين سنة، ولا الحرب الحاضرة التى نشهدها فى هذه الأيام، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح.

كان التاريخ شيئا فأصبح شيئا آخر، توسط بينهما وليد مستهل فى مهده

بتلك الصحيات التى سمعت فى المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء.. ما أضعفها يومئذ صيحات فى الهواء.. ما أقواها بعد ذلك أثرا فى دواقع التاريخ.. ما أضخم المعجزة وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون.

على أننا نستعظم الأحداث العظام فى تاريخ بنى الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان.

وجائز أن يقع فى الدنيا طوفان أو زلزال، فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدل فى التاريخ، ويبتعث دوافع الشعوب.

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإنسان، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التى تهول الأنظار.

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح فى كل قلب من قلوب أتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم، دنا مرتبة إلى الله. يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة فى عالم الضمير. فمن أنكرها إنما ينكر تقدم الإنسان كثيرا أو قليلا فى هذه الطريق.

عقد عالم أوروبى[1] مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل: "أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه؟" ثم أجاب قائلا: "إنه على اليقين لصاحبه فصيلتين من فضائل الأنبياء: فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من

(١) الدكتور ماركس دودز فى كتابه "محمد وبوذا والمسيح".

Mohamed Buddha and Christ By Dr. Marcus Dodds

حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى إسرائيل، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين، وقابل النفى والحرمان والضغينة، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء. . . . وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عاد الأوثان، إلا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أتيح له ذلك لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الآخرين على الإيمان فإذا سأل سائل: ما الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة؟. . فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه".

والحقيقة التى يراها المنصف - مسلما كان أو غير مسلم - هى هذه: هى أن فتوح محمد فتوح إيمان، وأن قوة محمد قوة إيمان، وأنه ما من سمه لعلمه أوضح من هذه السمة، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل: لقد جاء الإغراء الذى أشار إليه العالم الأوروبى وهو داع مهدد فى سربه، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل إليه.

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ أمره فقال له واعدا ملاطفا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين: "يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها" فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد.

فقال: "يا ابن أخي!.. إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه". فما زاد ﷺ على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ثم تركه يعود كما أتى..

ثم أدرك النبى غاية م سعى إليه فلم يدخل له المال ولا المتاع فى حساب، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل فى إغرائه من النعيم الموعود، بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة، وكان النبى أزهد فيه من زهده فى النعيم الموعود فلم كل هذا؟ لم هذا الجهاد؟ ولم هذا العناء؟ ولم هذا الصبر إن لم يكن فى سبيل الإيمان؟ وأى نبى له من الإيمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة.؟.. وأى إنسان يعرف تعظيم الأنبياء إن لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشانئيه: حكمه أنفذ من حكم الشانئين والأصدقاء، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين، وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين.. لأنه حكم الله.

وقد حكم له أنه كان فى نفسه قدوة المهذبين، وكان فى عمله أعظم الرجال أثرا فى الدنيا، وكان فى عقيدته مؤمنا يبعث الإيمان وصاحب دين يبقى ما بقيت فى الأرض أديان.

وسيطلع فى الأفق ويغيب هلال، وسيذهب فى الليل قمر ويعود قمر، وتتعاقب هذه الشهور التى كأنها جعلت لتأريخ ما بين الصدور، لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ولا مواعد الأشغال ولا أدوار الدواوين والحكومات ولا ينتظرونها إلا هداية مع الظلام وسكينة مع الليل: أشبه بهداية العقيدة فى غياهب الضمير.

يوم الغار:

ستطلع الأقمار بعد الأقمار، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية وكأنها تقبل بمعلم من معالم السماء يومئ إلى بقعة من الأرض هى غار الهجرة أو يومئ إلى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد، لأنه أدل الأيام على رسالته، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته، وهو يوم التقويم الذى اختاره المسلمون بإلهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم.

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ فى الإسلام ولم يكن يوم الدعوة؟ ولم لم يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبى أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ.. كل يوم من هذه الأيام كان فى ظاهر الرأى وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة فى جنح الظلام.

فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءا لتاريخ الإسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه.

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب: كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء.

وليس يوم أحق بالتأريخ إذن من اليوم الذى هجر فيه النبى بلده ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ليقل من قال إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعها كان توقيتا معروفا على عهد النبى ﷺ.. وليقل من قال إن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ

من الهجـرة، وهو يوم عظيم. . ليقل من قال هذا أو ذاك، فـإن تاريخ النصر فى القرآن إذ هو "ثانى اثنين" فى الغار.

وإن ابن الخطاب لنبيل ملهم الفـؤاد - سواء كان هو المفتـوح أو مجيب الاقتـراح - حين نظر إلى غـار "ثور" ولم ينظر فى التاريخ إلى نصـر المدينة ولا إلى نصـر بدر ولا إلى نصر أحد ولا إلـى نصر فارس، ونصـر إلى تلك "الجنود التى لم تروها" وقد نراها نحن الآن.

يوم الدعوة لم يكن يوم الإسلام الأول، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير.

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الإسلام الأول، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية، ولأن محمدا بشر مثلنا فى مـولده. ولكنه سيـد الرسل يوم دعـا ويوم نجا بالدعـوة إلى حيث تنجـو تسود، وحيث يكون امتحانها الأول فى قلب صـاحبها قلب صاحبه الصديق، وهما اثنان فى غار.

كذلك تؤرخ العقائد والأديان: بالشدة تأريـخها وليس بالغنائم والفتوح وإنها لشىء فى القلوب فلنـعرفها إذن حـين لا تكون إلا فى القلوب، وحين يكون كل شىء كـأنه ينكـرها وينفى وجـودها وهى يومـئـذ من الوجـود فى الصميم.

* * *

يوم عقيدة ورجاء:

إن يوم الغـار ليوم له عـبرته وعـزاؤه فى كل يوم ولاسـيمـا أيام القلق والحيرة والانتظار. .

إنه يوم عقيدة فهو رجاء ويوم نظر إلى المستقبل الذى ينظر إليه من ليس له رضى فى حالة حاضر عهده وحاضر العالم فى عهده هذا ولا يرضى أحدا

محبيه.. حيثما غلبت الحيرة والقلق فى العالم فهنالك أمر واحد منه على أتم اليقين كل على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية! لأنه ضيق بالحاضر وينظر إلى المستقبل، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور إن لم يكن موضع رجاء ومرجع إيمان، وغاية سعى يستحق الكفاح..

وفى التاريخ الإنسانى كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضى الذى لا مستقبل بعده، إنما تقوم الحركات العظمى جميعا على الرجاء فى غد محجوب، أو على شىء يمكن أن يتحقق فى حياة الإنسان، وشىء يبقى أبدا موضع الرجاء البعيد..

لقد كان على فتى يستقبل الدنيا، وكان أبو بكر كهلا يدبر عنها، يوم أعانا محمدا فى يوم ثور.. ولكنهما كان معا على أبواب غدر واحد ورداء واحد، يستوى فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف إلى قبره، لأنه رجاء الإيمان لا رجاء العيان.

المستقبل للإيمان:

ماذا فتح الإسلام لأبى بكر من عوالم الحياة؟.. هل رجع به إلى الماضى أو أقبل به على المستقبل؟.. هل مشى به فى حرمة إلى أمام أو قفل به فى رجعة إلى وراء؟.. الحق أن الإسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء، وكان يفتح أمام أبى بكر - وليس أمام على وحده - باب الحياة الصالحة فى الدنيا وباب الحياة الخالدة فى الآخرة.. وهكذا كل عقيدة فما هى بعقيدة على أى معنى الاعتقاد إن كان خيرها كله شيئا يناله الإنسان فى أيامه.. فلا مناص فى العقيدة من خير وراء أيام الفناء..

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض، ومن يبتغون الحركة ويقودون الخطوات المقبلة فى عجلة أو أناة.

لن تتحـرك أمة غلا إذا فتـحت أمامهـا باب المستقـبل، ولن تلتفت إلى الماضى إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقـبل، ولن تعيره الحياة إلا وهو مبعوث من جديد فى صورة الخلق الجديد.

ليـذكر هذا من يحـاربون فى أمر الـعالم اليـوم وهو غارق فى دمـائه، ضائق بحاضره، معرض عن ماضيه..

فيم يحار؟..

فى طلب المستـقبل فى طلب العقيدة، فى طلـب المسوغ للوجود، لأن الوجود وحده لا يكفى الإنسان إلا أن يكون على طبقة مع الحيوان.

فالإيمان للمستقبل.

وعسى أن يكون المستقبل للإيمان.

وعسى أن يسـتجـد العالم عزاء باقـيا من يوم الغـار ومن صاحب يوم الغار..

***